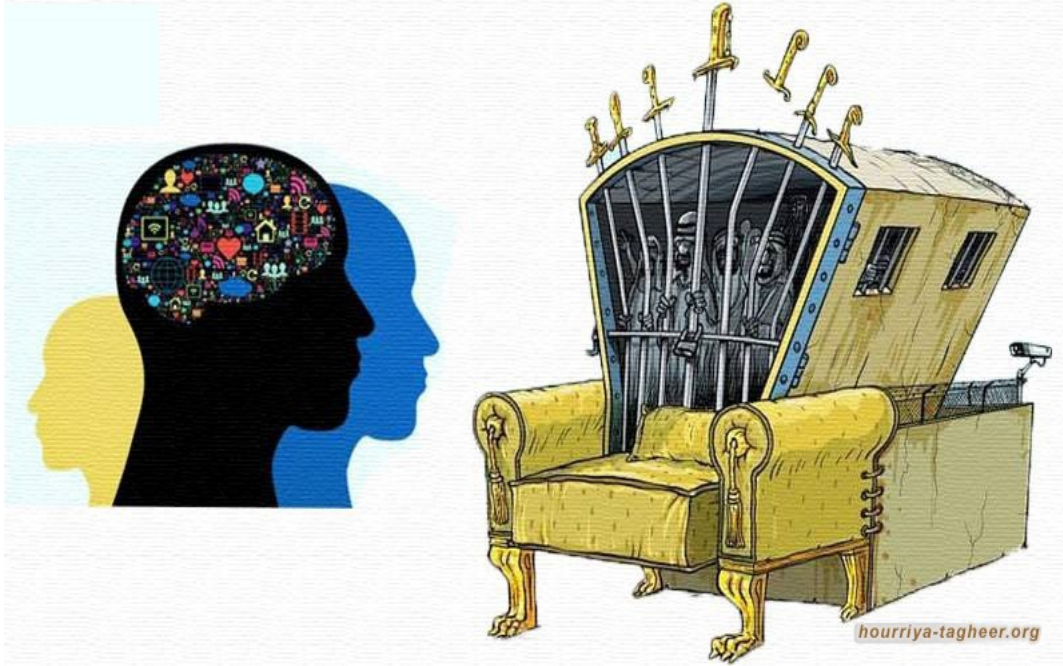


هالة الزعامة في الثقافة العربية



بقلم: د. وليد عبد الحي...

عسير على أي باحث منصف ان يتجاوز دور بعض الأفراد في التاريخ، فقد شكل بعضهم نقاط تحول كبرى سواء كمفكرين وفلاسفة او علماء او قادة عسكريين او حكاما ، وهو الأمر الذي نجده يترك بصماته على وجدان الشعوب ومخيلتها. لكن الامر الذي يجب التوقف عنده ان " هالة الزعامة" في الثقافة العربية تجاوزت كل الحدود بتمجيد ينطوي على مبالغاة لا تجدها في كثير من المجتمعات ، وهو أمر عطل الدافعية الجماعية انتظارا لمعجزات سينجزها الفرد او اتكل المجتمع عليه لينجزها..ولكن ما سبب ذلك...:

أولا: امتداد ظلال التقديس من الشخصية الدينية الى الزعيم، فقد بقيت صورة الخليفة كأنها امتداد لصورة من صور النبوة (لاحظ منع تصوير الخليفة او تمثيله او رسمه) وبقيت هذه الظلال تزحف مع شجرة الحكم ، واصبحت المنطقة المشتركة بين المقدس والسلطة متشابكة الحدود حتى هذه اللحظة، واستقرت تقاليد الانتساب الى "المقدس" سواء أكان رسولا او خليفة مع أن ذلك ليس إلا وهما وتدليسا ، ويبدو ان الحضارات الزراعية ومجتمعات الأنهر بحكم اعتماد نمط انتاجها على الطبيعة ساهمت في تعزيز ذلك ،

وشكل الجهل بيئة مواتية لتواصل هذه المسألة.

ثانياً: سيكولوجية الكبت والقهر في مجتمعاتنا تجعل الفرد " يذوب" في الشخصية القيادية التي تعده بالتطور والانتصارات واشباع كل ما هو محروم منه بغض النظر عن صدق هذه الوعود، وتدرك تلك الزعامة هذه المسألة ويجذبها سحرها، وهنا يزداد الزعيم في وعوده فتزداد الجماهير المكبوتة التصاقاً به، وتبدأ في اصفاء الهالة على ذلك الزعيم من خلال المبالغات والغناء والتبجيل الكاذب، فيزداد الحاكم " ورماً " في أناه، فيغرق من جديد في وعوده، وهكذا يتغذى الجمهور على أوهام الحاكم، ويتغذى الحاكم على التصفيق والتهليل فيزداد ورماً "، فيكتمل نسيج "الكبش والقطيع"، ولاحظ كيف " تكايد شعوبنا بعضها بعضاً" من خلال قصائد وأغاني التمجيد لزعيم أو أغاني تحقيرية لمن يكرهونه، وكنت اتساءل حتى في شبابي: عندما كانت الصحف المصرية تضع في عنوانها العريض أن الرئيس حصل على تأييد 99.99% من الاصوات، كنت اتساءل: هل من المعقول ان الرئيس يصدق هذه النتيجة، فحتى الآن يعارضه 7% من سكان العالم (حسب Oxford The Handbook of Atheism Press University Oxford).. ويبدو ان الزعماء العرب يتحللون من ضغوط الدونية القابعة في اعماقهم من خلال أوهام عظمة تصنعها الهنافات والتصفيق والغناء والصولجان والازياء المهيبة، فيبدأ الحاكم في رد الجميل للقطيع بان يعدهم بما يحلمون به، وتستمر لعبة التغذية المتبادلة بين الراعي والقطيع.

ثالثاً: مهابة الغياب المصنوع أو زهو الحضور: فعزلة الحكام عن المجتمع إلا في مناسبات مصنوعة تجد الجماهير متلهفة " لرؤية" انوار الزعيم او " طلعت البهية" ويتبدى الزعيم في مخيلة الشعب كصورة "متخيلة"، وعند الحضور تراه في إطار من المهابة في اللباس والحراس والنياشين والموسيقى والسجاد الاحمر... وكل ما يضفي مسحة من " الجلال"، لكن الفرد العربي لا يتخيل الحاكم يرتدي بيجاما للنوم او حافيا او يتدلى مخاطه من الزكام او يخرج الريح من استه او أي من الممارسات البشرية، فتتوارى الصورة البشرية وتتطاوّل الصورة فوق البشرية والمهابة في الذهن المجتمعي، فالحاكم العربي حريص على ان يكون حضوره تكريس للصورة " فوق البشرية"... وكم من انسان تسمعه يقول لك صاغت الزعيم فلان، وكم يحتفظ بصورة مع هذا الحاكم او ذاك لا من باب الأرشيف بل من باب "أنوثة" كامنّة تتوارى خلفها دونية كامنّة في مواجهة " فوقية" اتفن الزعماء بناءها، وهو ما يختصره المثل الشعبي " حسبت الباشا باشا...طلع الباشا زلماً"... انها مفاجأة العقل العربي في ان الباشا " زلماً"، ويبدو لي أن سيكولوجية الجماهير العربية أكثر ميلاً واعجاباً " بالطاغية"، فغير المستبد يراه العرب "ضعيفاً"، وارتداء الحاكم للزي العسكري يضفي عليه مهابة " الفارس"، لكن تملق الجمهور صنعة لا يتقنها كل حاكم، فالتملق "صنعة تحتاج لمؤهلات معينة لنجاحها".

لقد رأينا صوراً لترامب وهو ملقى على الأرض من قبل أحد المصارعين، ورأينا ساركوزي والممطرة ترفض مصافحته، وبوتين نصف عار يمارس الرياضة أو رأينا غني... فقد انهارت الصورة المهيبة في هذه المجتمعات، وبقيت الصورة البشرية للحاكم " الموظف " وليس ظلًا في أرضه.... والغريب أن الحاكم العربي لا يريد تصديق أن وسائل التواصل الاجتماعي بدأت حملة تحطيم الأصنام، وأصبحت مشاعر الكراهية الكامنة تظهر على صفحات وسائل التواصل الاجتماعي وهو ما أقلق "الصنم" ويحاول توظيفه لصالحه.

رابعاً: انتشار الفاظ التبجيل والتعظيم وأدب النفاق وشعر الكسبة كتكريس لمجتمع يطحن الفرد ويزعزع من أسس صحته العقلية والنفسية... أنها الثقافة التي ولدت شاعراً يقول لخليفته :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فانت الواحد القهار

إن شريحة ممن يصنفهم الشارع أو يصنفون بعضهم كمثقفين تعزز كل ما سبق، فالقاب ال :

الزعيم والمهيب والسيادة والجلالة والباشا والقائمة والبيك وأمير المؤمنين والاستاذ الدكتور والعالم والمفكر الكبير وطويل العمر وموسيقار الشرق وأم الدنيا والعراق العظيم والثورة الكبرى وملك الملوك وأمير الشعراء وكوكب الشرق كلها القاب أفرزتها ثقافة " التزلف شعراً ونثراً"، ولا شك أنها اتقنت الصنعة، أنها ثقافة المتنبي المبدع في صنعه الأدبية والمتزلف الأكبر في وظيفته الاجتماعية (فهو من قال لكافور في الصباح: أبا الطيب لا أبا المسك وحده.. وفي المساء قال له لا تشتري العبد إلا والعصا معه.. فأى المتنبيين هو من صدق؟) أنا ضحايا إنتاج شريحة من المثقفين التي تلعب دور صرصار مجاري القصور مرة و عندليب الشارع مرة أخرى، وما عليك إلا أن تراقب الإعلام الرسمي في العالم العربي.

لقد اطلعت على وثيقة في بلد عربية تشير إلى أن الدولة تنفق عشرة ملايين دولار سنوياً نفقات " لصور الرئيس فقط"، ألا يدل ذلك على شخصية مرضية؟ هل تحتفظ الشعوب الغربية بصور حكامها في بيوتهم؟ هل يغنون لهم؟ فهناك فرق بين من يرى الحاكم موظفاً كأى موظف عادي وبين من يراه رباً... وجزء هام من صناعة الرب الوهمي هذا هي من إنتاج مثقف يتقيأ علينا صباحاً ومساءً.. وبدون ربما هذه المرة.